# مقدمة العقاد

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة إلى اليوم سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام وكنت يومئذ أقيم في ضاحية العباسية على مقربة من الساحة التي كانت مُعدَّة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام .

ولنا جماعة من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والإفرنجية ، ويترددون معاً على الأحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها . فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحي الحسيني والحي الزينبي ، أو بين منشية القلعة ، وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج .. على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات .

وكانت جماعة لها نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشئ في العاصمة وناشئ في الريف وناشئ في الصعيد وناشئ في المدن الساحلية ، إلى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من أسباب التفرق والاختلاف .

ومن عجائبها أن الذي كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الإفرنجية التي كانت منتشرة بينها ؛ لأنهم كانوا يقرءون أكثر ما كانوا يقرءون كتب " دكنز " [1]

---

(1) تشارلز جون هوفام ديكنز (١٨١٢ – ١٨٧٠م) من أعظم روائيين الإنجليزي .



openkandil.com

و " هازليت " [١] و " لي هانت " [٢] و " كارليل " [٣] وهم كتَّاب مهتمون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين والحضريين في أوضاعهم المختلفة ولهم فصول في الأسواق ، والدكاكين ، والباعة، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة . ومتعة القراءة تعوِّد من يدمن قراءاتها أن يتتبع أمثالها حيثما رآها .

ففي يوم من أيام المولد النبوي [٤] والجماعة تزورني ليذهبوا إلى الساحة مجتمعين في المساء كان الكاتب الإنجليزي العظيم " توماس كارليل " هو محور الحديث كله؛ لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب " الأبطال " الذي عقد فيه فصلاً عن النبي محمد ﷺ وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل [٥] .

وإنا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي ﷺ إذ خَرَجت من أحد الحاضرين الغرباء عن جماعة الأصدقاء كلمة منافية للأدب وحسن الخلق غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء القصد وكان الفتى الذي قال هذه الكلمة مدعياً للعلم يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة .. فكان مما قاله شيء عن النبي ﷺ والزاج ، وشيء عن البطولة فحواه : أن بطولة محمد ﷺ إنما هي بطولة سيف ودماء !

---

**(1) وليام هازليت (١٧٧٨ – ١٨٣٠ م ) كاتب وناقد أدبي إنجليزي .**
**(2) جيمس هنري لي هانت ( ١٧٨٤– ١٨٥٩ م )كاتب وشاعر وناقد إنجليزي**
**(3) توماس كارليل في ( ١٧٩٥ – ١٨٨١م ) كاتب وناقد ساخر ومؤرخ اسكتلندي .**
**(4) كان ذلك أوائل العقد الثاني من القرن العشرين .**
**(5) هذا الكاتب غير مايكل هارت صاحب كتاب " العظماء مائة أعظمهم محمد ﷺ " الذي ترجمه إلى العربية أنيس منصور أحد تلامذة العقاد .**

قلت : " ويلك ما يستحق أحد الضرب بالسيف كما تستحقه أنت بهذه الكلمة المنافية للأدب وحسن الخلق " .

وقال صديقنا المازني : " بل السيف أكرم من هذا ، وإنما يستحق صاحبنا شيئاً آخر، وأشار إلى قدمه ! " .

وارتفعت لهجة النقاش وقتاً يسيراً ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من المجلس واعتذاره قبل خروجه ، بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خُيِّل إليه أنه مقبول .

وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد " كارليل " للنبي ﷺ وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ، ثم سألني بعض الإخوان : " ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقُرَّاء العربية كتاباً عن محمد ﷺ على المنهج الحديث ؟ " .

قلت : " أفعل ، وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب " .

ولكنه لم يتم في وقت قريب بل تمَّ بعد ثلاثين سنة ! وشاءت المصادفة العجيبة [1] أن تتم فصوله في مثل الأيام التي سمعت فيها الاقتراح لأول مرة فكتبت السطر الأخير فيه في يوم مولد النبي على حسب الشهور الهجرية .[2] واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير مني ولا من أحد ؛ لأني لم أدبر لنفسي أوقات الفراغ التي هيأت لي إتمام فصوله وتقسيم العمل في يوماً بعد يوم .

والخيرة في الواقع .

والخيرة كذلك في التأخير .

---

(1) **الصواب وشاء الله تعالى أو شاء القدر .**

(2) **نشر كتاب العقاد " عبقرية محمد " عام ١٩٤٢ م .**

فإنني لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد ، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى محصول ذلك العمر الأول ؛ إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلئ فيه إعجاباً بمحمد ، لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية . غير أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه ، وفي مثل السن التي قام فيها بالرسالة [1] وأن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الغاية البعيدة من مختلف نواحيها .

إنها مسافات في عالم الفكر والروح ، لو تمثلت مكاناً مشاهداً لأمسك الإنسان رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار .

كم رأي ؟ كم مذهب ؟ كم وسواس ؟ كم محنة ؟ كم مراجعة ؟ كم زلزال يتهدم له الكيان وتضطرب معه الأعمدة والأركان ؟ كم وكم في الثلاثين سنة مما تتعرض له النفس من التجارب والحوادث ؟ وكم لذلك كله من تأثير في تقوية الرأي وتهدئة الانفعالات وكشف الغبار ؟ وكم يضيف ذلك كله إلى مطلع الشباب الذي كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل قمة عالية ، وبالمقام المحمدي في عليا مراتب الأنبياء ؟

الخيرة في الواقع .

الخيرة في ذلك التأخير .

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن " عبقرية محمد " بين يدي القُرَّاء ، لا نقول : إننا قد استوفيناه كما أردناه ، ولا إننا فصَّلنا فيه الهدف الذي قصدناه ، ولكننا نقول: إننا بدأنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يغلط بها أدعياء العلم والجهلاء عن عدم معرفة أو سوء نية ونظرنا اتفاقاً ، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا

---

(1) بُعِثَ النبي في الأربعين من عمره ، وكتب العقاد هذا الكتاب وقد بلغ الثالثة والخمسين .

فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية ؛ لأنهما كانا مثار النقاش تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكان مثار النقاش في كل ما ردده ضعفاء العقل الكارهين .

فسيرى القارئ أن " عبقرية محمد " عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السِّيَر العربية والإفرنجية التي حفلت بها " المكتبة المحمدية " حتى الآن لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الكتب في هذا الموضوع ، ثم لا يقال إنه استنفد كل الاستنفاد .

وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعاً عنه أو مجادلة لخصومه، فهذه أغراض مستوفاة في أماكن مختلفة يكتب فيها من هم أصحابها ولهم دراية بها وقدرة عليها .

إنما الكتاب تقدير " لعبقرية محمد " بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى .

فمحمد هنا عظيم ؛لأنه قدوة المقتدين في المناقب يتمناها المخلصون لجميع الناس.

عظيم لأنه على خُلق عظيم .

وإيتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل ، ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى ، سببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم ولشعوب كافة ، ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مهضوم الحق معرض للهجر والجحود.

والسبب الآخر أن الناس قد اجترءوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها ، فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة ، حقوق الشرفاء النادرين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة .

والمساواة هي شريعة عامة الناس في العصر الحديث .

ولقد اعتدى هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما اعتدى على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين ، ثم أغرى الناس بالاعتداء بعد الاعتداء غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء ، حتى في ملكات النفوس والأذهان ، وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم .

يرون أن البخار يلغي الشِّراع ، وربما كان الاختراع السابق أدلُّ على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذي تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه .

وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر إليهم أن يتجنوا عليهم وينتقص كرامتهم ، ولا يعودوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل الاتهام والنقص والكذب .

هذه الأمراض تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض .

وتهبط بالأمل في إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما أقل من الحضيض .

فماذا يساوي إنسان لا يساوي الإنسان العظيم شيئاً لديه ؟

وأي معرفة بحق من الحقوق يتعلق بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟ وإذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟

لهذا كان تقدير " محمد " بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعاً في هذا الزمن الذي انحرفت فيه مقاييس التقدير .

إنه لنافع لمن يقدرون محمداً ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه لأنه في عظمته الخالدة لا يضار بإنكار ، ولا ينال منه ظلم الجهلاء إلا كما نال منه ظلم الكفار .

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والدلائل التي يراها غير المسلم ، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها ، لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين : مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس .

ويكفينا من " عبقرية محمد ﷺ " أن نقيم الأدلة على أن محمداً ﷺ عظيم في كل ميزان " عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يختلفون في الطبائع الآدمية .

إن عمل محمد ﷺ لكافٍ جد الكفاية بلوغه المكانة الأعلى من التعظيم والإعجاب والثناء ..

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم تكن أصناماً كأصنام يونان يحسب للمعجب بها الجمال ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير . ولكنها أصنام قبيحة كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول ، فنقلهم محمد ﷺ من عبادة هذه الأصنام القبيحة إلى عبادة الحق الأعلى ، عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من سكون إلى حركة ومن فوضى إلى نظام ، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبلة ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات .

إن عمله ﷺ هذا لكاف لشغله المكان الأعلى بين صفوة الأخيار الخالدين ، فما من أحد يبخل على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم إنسان .

إلا إننا نمضي خطوة وراء خطوة هذا ، حين نقول أن التعظيم حق " لعبقريات محمد ﷺ " ولو لم تقترن بعمل محمد ﷺ .

لأن العبقرية قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ، وهي حدها قيمة يغالي بها التقويم .

فإذا رجح بمحمد ﷺ ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة ، فهو نبي عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم .

ويكفينا من كتابنا هذا أن يكون إشارة إلى تلك العظمة في آفاقها .

عباس محمود العقاد

***

obeikandl.com